MHjool.com

سلسلة كتب الإمام الحدّاد (٦)

رسالة المذاكرة

مع الإخوان المحبّين من أهل الخير والدّين

للإمام شيخ الإسلام قطب الدّعوة والإرشاد
الحبيب عبد الله بن علويّ الحدّاد الحضرميّ الشّافعيّ
رحمه الله تعالى

دار الحاوي
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

مصححة ومنقحة

بالتعاون مع

الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان

هاتف ٣٤٢٨٨٦ ـ ص.ب ٥٩٢٠ـ١١٣ - تلكس ٤٣٢١٨ ـ فاكس ٨٦٠١٣٨ـ١ـ٩٦١

تعريف موجز عن الإمام الشهير عبد الله بن علوي بن محمد الحداد

هو سيدنا الإمام العلامة الداعي إلى الله بقوله وفعله قطب الارشاد الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد الحداد ولد رضي الله عنه بالسبير من ضواحي مدينة تريم بحضرموت ليلة الخميس ٥ صفر سنة ١٠٤٤ هـ وتربى في تريم وقد كف بصره وهو صغير فعوضه الله عنه بنور البصيرة وجد واجتهد في طلب العلوم النافعة وعكف على علماء عصره في مقدمة مشايخه سيدنا الحبيب عمر بن عبد الرحمن العطاس والحبيب العلامة عقيل بن عبد الرحمن السقاف والحبيب العلامة عبد الرحمن بن شيخ عيديد والحبيب العلامة سهل بن أحمد باحسن الحديلي باعلوي ومن مشايخه أيضا الإمام العلامة عالم مكة المكرمة السيد محمد بن علوي السقاف.

ثم نصبه الله للدعوة والإرشاد داعيا إلى الله تعالى

بالحكمة والموعظة الحسنة فأقبل عليه الناس وانتشر صيته في البلدان وانتفع به القاصي والداني فنفع الله به الكثير وأرشد الجم الغفير وانتشرت دعوته في كل مكان وانتفع الناس بوعظه وكتبه وأخذ عنه الجم الغفير فمن كبار تلامذته ابنه سيدنا الحبيب حسن بن عبد الله الحداد والحبيب أحمد بن زين الحبشي والحبيب عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه والحبيبين محمد وعمر أبناء زين بن سميط والحبيب عمر بن عبد الرحمن البار والحبيب علي بن عبد الله بن عبد الرحمن السقاف والحبيب محمد بن عمر بن طه الصافي السقاف وغيرهم العدد الكثير.

وله مؤلفات كثيرة جمعت النصائح والمواعظ والحكم وانتشرت انتشاراً كبيراً وكتب لها القبول والمحبة ونفع الله بها الناس وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى لغات أجنبية في العصر الحاضر مثل الإنجليزية والفرنسية. ومؤلفاته غنية عن التعريف

ومشهورة لدى الكبير والصغير ومنها النصائح الدينية. والدعوة التامة ورسالة المعاونة وغيرها من الوصايا والرسائل ومجموع كلامه تثبيت الفؤاد وديوانه العظيم الدر المنظوم الجامع للحكم والعلوم ووصاياه ومكاتباته وأكثر مؤلفاته مطبوعة وأقبل عليها الناس إقبالاً شديداً وأعجب بها العلماء والعارفون وجعلوها بمنزلة الغذاء يقرئون فيها في كثير من الأوقات وقالوا عنها انها جمعت الخلاصة والزبدة من كلام الإمام حجة الاسلام الغزالي ولا يستغني عنها كل مسلم فهي وجيزة وجامعة ونفع الله بها ببركة مؤلفها الإمام الحداد رضي الله عنه وكان رضي الله عنه قد سافر إلى الحرمين الشريفين وأدى النسكين وزار جده سيد الكونين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وذلك في عام ١٠٧٩ هجرية واجتمع بعلماء الحرمين الشريفين الذين اغتبطوا به وعرفوا قدره وأثنوا عليه.

ولم يزل يدعوا الناس إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة
الحسنة حتى وفاته إلى رحمة الله تعالى فتوفي ليلة الثلاثاء
٧ ذو القعدة عام ١١٣٢ هجرية ودفن بمقبرة زنبل
بتريم رحمه الله رحمة واسعة ورضي الله عنه ونفعنا
به وبعلومه في الدارين آمين .

طه بن حسن بن عبد الرحمن السقاف

حرر الجمعة ٢٢ شوال سنة ١٤١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٢/ ٣٢] .

الحمد لله رب العالمين ، الذي خلق الإنسان من طين ، وجعل نسله من سلالة من ماء مهين ، وأخرج المؤمنين المتواصين بالحق والصبر من زمرة الخاسرين ، باستثنائه إيّاهم بعد أن عمّ بالخسران نوع الإنسان الذي هو سائر الآدميين ، وأمر عباده الذين آمنوا بالتعاون علىٰ البرّ والتقوىٰ ، وأخبرهم أنّ أكرمهم عنده أتقاهم ، وأنَّه وليّ المتقين ، وانَّه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، لا ليعمروا الدنيا ويجمعوا الأموال ، بل قد حذَّرهم ذلك علىٰ لسان رسوله الأمين القائل : « ما أُوحِيَ إليّ أن أجمع الماء وأكونَ من التاجرين ، ولكن أنْ سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتىٰ يأتيك اليقين » .

فإذاً سعادة كل أحد وكماله ، في التزام الأمر وفي مالَهُ الذي لأجله خُلِق ، والذوب فيه ، والتفرغ له ، بقطع ما يمنع منه ويصدّ عنه من ترّهات الحمقاء المغترين ، وتهويسات الأغبياء البطَّالين .

وصلّىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين ، الذي أرسله رحمة للعالمين ، وعلىٰ آله وأصحابه وتابعيهم بإحسان إلىٰ يوم الدين .

أما بعد : فإن جِماع الخير وملاكه تقوىٰ الله في السرّ والعلانية وَالغيب والشهادة ؛ والتقوىٰ هي الخصلة التي تجمع لصاحبها خير الدنيا والآخرة ؛ ولعِظَم موقعها من الدِّين ، وجلالة قدرها عند العلماء الرَّاسخين ، صدّروا بها خطبهم والمواعظ والوصايا ؛ ولكونها جامعة للخير كله ، اكتُفِيَ بذكرها في الوصية الواجبة في الخطبة ، وكثيراً ما يقتصر عليها الأكابر في وصية من استوصاهم .

والتقوىٰ وصية الله رب العالمين للأوّلين والآخرين . قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٤/ ١٣١] .

وفي الأمر بالتقوىٰ قال الله تعالىٰ : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [النساء : ٤/ ١] الآية . وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأحزاب : ٣٣/ ٧٠] . وقال عزَّ وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٠٢] وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ٦٤/ ١٦] ؛ أي : استفرغوا الطاقة والإمكان في ذلك . ﴿ لَا يُكَلِّفُ

ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق : ٦٥/ ٧] .

والآيات في الأمر بالتقوى كثيرة .

وقد جمع الله للمتقين خيرات الدنيا والآخرة ، فمن ذلك : **المخرج من الشدّة ، والرزق من حيث لا يحتسبون .**

قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٦٥/ ٢ـ٣] .

ومن ذلك **الهدىٰ** . قال الله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة : ٢/ ٢] .

ومنها : **العلم** ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٨٢] .

ومنها : **الفرقان** والكفارة للسيئات والمغفرة للذنوب . قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال : ٨/ ٢٩] .

قال بعض المفسرين : يجعل لكم فرقاناً : هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل .

ومنها : **الولاية** . قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية : ٤٥/ ١٩] .

ومنها : **المعية** . قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢/ ١٩٤] ؛ أي : بالنصر والإعانة والحراسة .

ومنها : النجاة . قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ [مريم : ١٩/ ٧٢] .

ومنها الوعد بالجنة . قال عزَّ من قائل : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [محمد : ٤٧/ ١٥] ، ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القلم : ٦٨/ ٣٤] ، ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [ق : ٥٠/ ٣١] .

إلىٰ غير ذلك من الخيرات الجميلة ، والفضائل الجليلة ، والمواهب الجزيلة ، ويكفي في شرف التقوىٰ أن الله تعالىٰ ذكرها في أكثر من تسعين موضعاً من كتابه .

وفي الأمر بالتقوىٰ وفضيلته ، قال رسول الله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وقال رسول الله ﷺ : « أوصيكم بتقوىٰ الله ، والسمع والطاعة ، وإن تأمّر عليكم عبد حبشي » الحديث .

وقال عليه الصلاة والسلام : «اتَّقِ النار ولو بشقّ تمرة ، فإن لم تجد فبكلمة طيبة » .

وكان عليه الصلاة والسلام ، يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لأبيض علىٰ أسود

ولا لعربي علىٰ عجميّ إلا بتقوىٰ الله ، أنتم من آدم وآدم من تراب » .

وقيل يا رسول الله : من أكرم الناس ؟ قال : « أتقاهم » الحديث .

وروي أنه عليه الصلاة والسلام ، قال : « لا تأكلْ إلا طعام تقي ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » .

وقالت عائشة رضي الله عنها : ما أعجب رسول الله شيء من الدنيا ، ولا أعجبه أحد إلا أن يكون ذا تقىٰ .

وقال عليّ ـ كرم الله وجهه ـ : إنه لا يهيج علىٰ التقوىٰ زرع قوم . ومعنىٰ يهيج : يهلك .

وقال قتادة : مكتوب في التوراة : اتَّق الله وَمُتْ حيث شئت .

وقال الأعمش : من كان رأس ماله التقوىٰ ، كلّت الألسنة عن وصف ربحه .

وكان بشر الحافي ينشد :

موت التقيّ حياة لا نفاد لها قدمات قوم وهم في الناس أحياء

وفضائل التقوىٰ والمتقين أكثر من أن تُحصر ، وقد بسط الكلام في التقوىٰ الإمام الغزالي في منهاجه ، وقد لخصنا من كلامه بعض ما ذكرناه .

فَصْلٌ

قال الإِمام الغزالي : التقوىٰ في القرآن تُطلق علىٰ ثلاث معان :

أحدها : بمعنىٰ الخشية والهيبة .

والثاني : بمعنىٰ الطاعة والعبادة .

والثالث : بمعنىٰ تنزيه القلب عن الذنوب ، وهذا هو الحقيقة . انتهىٰ مختصراً .

وعلىٰ الجملة ، فالتقوىٰ عبارة عن اتقاء سخط الله وعقابه بامتثال ما به أمر ، واجتناب ما عنه نهىٰ وزجر . وحقيقة التقوىٰ أن لا يراك مولاك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك والسلام .

فصل

وقد علمت أولو القلوب السليمة والعقول المستقيمة أنهم يُجْزَوْن ما كانوا يعملون ، ويَحصُدون ما يزرعون ، وكما يدينون يُدانون ، وعلىٰ ما قدّموه يقدمون ، وكيف لا يعلمون ذلك ، ويوقنون بما هنالك ، وهم يسمعون ما به يؤمنون ، ويصدقون من تنزيل الله المحكم وحديث نبيه ﷺ ما يوجب العلم اليقيني القطعي لمن نوّر الله قلبه وشرح صدره ، فأحضرْ قلبك واصغ بأذنك إلىٰ طَرَف من ذلك ، لعلك بسماعه تستيقظ من غفلتك ، وتتنبّه من نومتك ، فتعمل لنفسك صالحاً تنجو به ، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء : ٢٦/ ٨٨ ـ ٨٩] .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ [النجم : ٥٣/ ٣١] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم : ٥٣/ ٣٩ ـ ٤٢] . وقال تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا

نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النساء : ٤/ ١٢٣ - ١٢٤] . وقال تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة : ٩٩/ ٧ - ٨] . وقال تعالىٰ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٨٦] . وقال تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت : ٤١/ ٤٦] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران : ٣/ ٣٠] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٨١] ؛ ويقال إن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن .

وقال رسول الله ﷺ : « إن روح القدس نفث في رُوعي : عِشْ ما شئت فإنك ميِّت ، وأحبِبْ ما أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك تُجزىٰ به » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « البر لا يَبلىٰ ، والذنب لا يُنسىٰ ، والديَّان لا يفنىٰ ، كما تدين تدان » .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه : « يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ، ثم أوَفِّيكم إيَّاها ، فمن وجد

خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تسبوا الموتىٰ فإنهم قد أفضوا إلىٰ ما قَدَّموا » .

وورد : إن العبد قد يُرفَع علىٰ سيده في درجات الجنة ، فيقول السيد : أي رب !! هذا كان عبدي في الدنيا ، فيقول سبحانه : « إنما جزيته بعمله » .

وقال عليّ ـ كرم الله وجهه ـ : الدنيا دار عمل ولا جزاء فيها ، والآخرة دار جزاء ولا عمل فيها ، فاعملوا في دار لا جزاء فيها لدار لا عمل فيها .

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : يقول الله لأهل الجنة ادخلوا الجنة برحمتي ، واخلدوا فيها بنياتكم الصالحة ، واقتسموها بأعمالكم .

وما ذكرته من الأدلة علىٰ وقوع المجازاة أردت به التنبيه ، وإلا فهو أمر معلوم للخاص والعام ، معروف لا يكاد يَخفىٰ حتىٰ علىٰ الأغبياء من العوام .

فصل

وقد جعل الله بمشيئته ، رضاه في طاعته ، وسخطه في معصيته ، ووَعَد من أطاعه دخول جنته برحمته ، وأوعد من عصاه دخول ناره بعدله وحكمته ، فقال تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء : ٤/١٣ ـ ١٤] .

وقد أمر سبحانه عباده الذين آمنوا بالمسارعة إلىٰ مغفرته وجنته ، وأن يقوا أنفسهم وأهليهم ناراً بامتثال أمره واجتناب معصيته ، فقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران : ٣/١٣٣] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم : ٦٦/٦] .

فصل

في ذكر شيءٍ مما يكرمُ الله به من أطاعه وعمل الصالحات لوجهه

قال الله تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ الآية [النحل : ١٦/ ٩٧] .

وقال سبحانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٢٤/ ٥٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف : ١٨/ ٣٠ ـ ٣١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم : ١٩/ ٩٦] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : يحبهم ويحبِّبهم إلىٰ المؤمنين .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالىٰ قال : من عادىٰ لي وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعَهُ الذي يسمع به ، وبصرَهُ الذي يبصر به ، ويدَهُ التي يبطش بها ، ورجلَهُ التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » .

أكرم الله بهذه المحبة العظيمة التي تصير معها حركات العبد وسكناته كلها بالله ، ولله مَن أَدَّىٰ ما افترضه عليه ، وأكثر من نوافل الطاعات تقرُّباً إليه .

وقال عليه الصلاة والسلام ، فيما يرويه عن الله عز وجل : « إذا تقرّب إليّ عبدي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إليّ ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة » ، فتقرُّب العبد إلىٰ ربه بطاعته وخدمته ، وتقرُّب الرب من عبده بفضله ورحمته .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما يحكي عن ربه : « أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر » .

وفي الزبور : « ابن آدم أطعني ؛ أملأ قلبك غنىٰ ، ويديك رزقاً ، وجسمك صحة » .

وأوحىٰ الله إلىٰ الدنيا : « يا دنيا مَن خدمني فاخدميه ، ومن خدَمَكِ فاستخدميه » .

وقال بشر بن الحارث ـ رحمه الله ـ : ذهب أهل الخير بالدنيا والآخرة .

وقال يحيىٰ بن معاذ : أبناء الدنيا تخدمهم العبيد ، وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار .

فإن أردت يا أخي أن يكون لك عز لا ينقضي ، وسؤدد لا ينقطع ، وشرف لا يذهب ، ومجد لا يبلىٰ ؛ فَأَطِعْ ربك . فإنَّ الله قد جعل ذلك كله في طاعته ، يُكرِمُ به من أطاعه من عباده ، وقد أكرم الله عباداً أطاعوه فحرّرهم من رقِّ الشهوات ، وطهَّرَ قلوبهم من دنس الالتفات إلىٰ الفانيات ، وأجرىٰ علىٰ أيديهم خوارق العادات ، وعجائب الكرامات ؛ من الإخبار بالمغيبات ، وإدرار البركات ، وإجابة الدعوات . فأصبح الناس يقتبسون من أنوارهم ، ويقتدون بآثارهم ، ويتوجَّهون بهم إلىٰ الله في كشف مهمّاتهم ، ويسألونه بحقِّهم في دفع ملمّاتهم ، ويَسْتَشْفعون بمواطىء أقدامهم ، ويتبركون بتربة ضرائحهم ، وقد أكرمهم سبحانه بما هو أجلّ من ذلك ، قذف في قلوبهم من نوره ، وحشاها من خالص معرفته ومحبته ، وآنسهم في خلواتهم بذكره ، فاستَوْحَشوا من خليقته ، وأعدّ لهم النعيم المقيم في دار النعيم ، ووعدهم النظر إلىٰ وجهه الكريم ، ورضاه عنهم أكبر : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٤/٥٧] ، ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات : ٣٧/ ٦١] .

فَصْلٌ

في ذكر شيء مما يترتب على المعصية من الخزي والدمار والهوان والبوار في الدنيا والآخرة

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه : ٢٠/ ٧٤] . وقال تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت : ٢٩/ ٤] . ومعنىٰ يسبقونا : يعجزونا ويفوتونا .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب : ٣٣/ ٣٦] .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا أذنب العبد ذنباً كان نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب صَفَا قلبه ، وإن عاد زاد ذلك حتىٰ يسودَّ قلبه » ؛ فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين : ٨٣/ ١٤] .

وقال عليه الصلاة والسلام: «قسوة القلب من كثرة الذنوب»

وقال ﷺ : « إن العبد لَيُحْرَم الرزق بالذنب يصيبه » الحديث . وأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ : « يا موسىٰ أوّل من مات من خلقي إبليس ، لعنه الله ، لأنه أوّل من عصاني ، ومن عصاني كتبته ميتاً » .

وقال سعيد بن المسيَّب ـ رحمه الله ـ : ما أكرمت العباد أنفُسَها بمثل طاعة الله ، ولا أهانتها بمثل معصية الله ، وكَفَىٰ المؤمن من نصر الله له أن يرىٰ عدوّه يعمل بمعصية الله .

وقال محمد بن واسع : الذنب علىٰ الذنب يميت القلب .

وقال بعض السلف : إن كنت تعصي الله وأنت ترىٰ أنه يراك ؛ فأنت مُسْتَهِيْنٌ بنظر الله . وإن كنت تعصيه وأنت ترىٰ أنه لا يراك ؛ فأنت كافر .

وقيل لوهيب بن الورد ـ رحمه الله ـ : هل يجد لذة العبادة من يعصي الله ؟ قال : لا ، ولا من يهمّ بالمعصية .

وكان السلف الصالح يقولون : المعاصي بريد الكفر أي : رسوله .

وعلىٰ الجملة فعلامة السقوط من عين الله ، والكون في مَقت الله ؛ العمل بمعصية الله . فالمصرّ عليها مَقِيْتُ الرحمٰن ، ووليّ الشيطان ، وبغيض أهل الإيمان ، فإياك يا أخي والتعرض لسخط الله وعقابه ، بارتكاب معصيته ، ومهما دعتك نفسك إلىٰ

ارتكابها فذكِّرها باطّلاع الله عليك ، ونظره إليك ، وخَوِّفها بما توعد الله مَن عصاه من أليم العذاب ، وعظيم العقاب ، ولو لم يكن في ارتكابها إلا فوات منازل السابقين ، وحرمان ثواب المحسنين ، لكان كافياً .

كيف ؟ وفي ارتكابها العار والنار ، وسخط الجبار ، وغضبه الذي لا تقوم له السمٰوات والأرض . نسأل الله العافية بمنّه .

فصل

قال رسول الله ﷺ : « مَن سَرَّتْهُ حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » .

فإذا وفقك الله أيها المؤمن للعمل بطاعته ، فليعظم فرحك بذلك ، ولتبالغ في شكر الله الذي أكرمك بخدمته ، واختارك لمعاملته ، وآسأله أن يقبل منك بفضله ، ما يَسَّرَهُ عليك من صالح العمل .

قال عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ : كونوا بقبول العمل أهمّ منكم بالعمل ، فإنه لا يقلّ عمل مقبول .

ولا تزال معترفاً بتقصيرك عن القيام بواجب حق ربك عليك ، وإن عَظُمَ في طاعته جِدُّك وتشميرك ، فإن حقه عليك عظيم ، أوجدك من العدم ، وأسبغ عليك النعم ، وعاملك بالفضل والكرم ، وبحوله وقوّته أطعته ، وبتوفيقه ورحمته عبدته .

وإيَّاك أن تدنِّس قميص إيمانك ، وتسوِّد وجه قلبك ؛ بإتيان ما نهاك عنه مولاك ، ومهما وقع منك ذنب ولو على سبيل الندور ، فعليك أن تبادر بالتوبة ، وتُحْسِن الأوبة ، وتكثر الندم

والاستغفار ، ولا تزال خائفاً وجلاً ، فإن المؤمن لا يزال في غاية من الخوف والوجل ، وإن أخلص الطاعة وأحسن المعاملة . وأنت تعلم ما كانت عليه الأنبياء مع عصمتهم ، والأولياء مع حفظهم ، من الخوف والإشفاق ، مع صلاح أعمالهم ، وقلة ذنوبهم أو عدمها ، فأنت بذلك أولى وأحرى .

فلقد كانوا أعرف منك بسعة رحمة الله ، وأحسن منك ظنّاً بالله ، وأصدق منك طمعاً في عفوه ، وأعظم منك رجاء في كرمه وفضله ، فاقْتَدِ بآثارهم تَنْجُ وتسلَمْ ، واتَّبعْ سبيلهم تَفُزْ وتَغْنَمْ ، واعْتصمْ بالله . وَمَنْ يَعتصِمْ بالله فقد هُدي إلى صراطٍ مستقيمٍ .

فَصْلٌ

ولما كانت هذه الدار قد أُسِّسَتْ على المحن والآفات ، وعُجِنَتْ بالمنغِّصات والمكدِّرات ، وَحُشِيَتْ بالمُشْغِلات والمُلْهِيات ، كثُرتْ لذلك الصوارف عن الطاعات ، وتوفرتِ الدواعي إلى المخالفات ، ثم إنها وإن كثرت تلك الصوارف ، وتوفرت تلك الدواعي .

فتكاد تنحصر في أربعة أشياء : أحدها : الجهل . الثاني : ضعف الإِيمان . الثالث : طول الأمل . الرابع : أكل الحرام والشبهات .

ونحن إن شاء الله نشير إلى كل واحد من هذه الأربعة بكلمات وجيزة ، تنبه على ذمها ، وصدور التثبط عنها ، وسبيل الخلاص منها .

وبالله التوفيق .

فصل

أما **الجهل** : فهو أصلُ كلِّ شر ، ومنشأُ كلِّ ضرر ، وهو وأهله داخلون في عموم قوله ﷺ : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله ، وعالم ومتعلم » .

ويروى : « إن الله لما خلق الجهل قال له : أقبل ، فأدبر . فقال له : أدبرْ ، فأقبل . فقال له : وعزتي ما خلقت خلقاً أبغض إليّ منك ، ولأجعلنك في شرار خلقي » .

وقال عليّ ـ كرم الله وجهه ـ : لا عَدُوَّ أعدى من الجهل ، والمرءُ عدوّ ما جَهِل .

وذمّ الجهل معلوم بالنقل والعقل ، لا يكاد يخفى على أحد ، والجاهل واقع في ترك الطاعات وفعل المعاصي ، شاء أم أبى ، فإنه لا يدري أيّ شيء الطاعة التي أمره الله بفعلها ، ولا أي شيء المعصية التي نهاه الله عن ارتكابها ، ولا يخرج من ظلمات الجهل إلا بنور العلم .

ولله درّ الشيخ علي بن أبي بكر ، حيث يقول :

الجهل نار لدين المرء يُحْرِقُه   والعلم ماء لتلك النار يطفيها

فعليك أن تتعلم ما أوجب الله عليك علمه ، وليس بواجب عليك أن تتسع في العلم ، بل عليك أن تتعلم ما لا يصلح إيمانك بدونه من علوم الإيمان ، وعليك أن تتعلم كيف تؤدي ما افترض الله عليك من طاعته ، وكيف تجتنب ما نهاك عنه من معصيته ، وجوباً فورياً في الفوريات ومُوَسَّعاً في المُوَسَّعات .

وقد كان مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ يقول : من طلب العلم لنفسه فالقليل منه يكفيه ، ومن طلب العلم للناس فحوائج الناس كثيرة .

فصل

وأما **ضعف الإِيمان** : فهو بلية عظيمة ، وخصلة ذميمة ، تنشأ عنها أمور مذمومة ؛ مثل : ترك العمل بالعلم ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأماني في المغفرة بلا سعي لها ، والاهتمام بالرزق ، وخوف الخلق ، إلى غير ذلك من الأخلاق المشْئُوْمة . وعلى قدر إيمان العبد يكون امتثاله للأمر واجتنابه للنهي ، وأَدَلُّ دليل على ضعف إيمانه تركه للموافقات ، وارتكابه للمخالفات ، فعلى كل مؤمن أن يسعى في تقوية إيمانه .

والأمور التي يَقْوَىٰ بها الإِيمان ويزيد ثلاثة :

أحدها : أن يصغي بسمعه إلى الآيات والأخبار التي فيها ذكر الوعد والوعيد وأمور الآخرة ، وإلى قصص الأنبياء ، وما أيدوا به من المعجزات ، وما حلّ بمعانديهم من المثلات ، وإلى ما كان عليه السلف الصالح من الزهادة في الدنيا والرغبة في الآخرة . إلى غير ذلك من الأدلة السمعيات .

الثاني : أن ينظر بعين الاستبصار والاستدلال إلى ملكوت السمٰوات والأرض، ومافيهما من عجائب الآيات وبدائع المصنوعات .

الثالث : أن يواظف على العمل بالصالحات ، ويحترز من الوقوع في المعاصي والسيئات ، فإن الإيمان قول وعمل ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وكل هذه المذكورات يزيد بها الإيمان ، ويقوى بها الإيقان . والله المستعان .

فصل

وأما **طول الأمل** : فمذموم جداً ، بل هو الذي يدعو إلىٰ خراب الآخرة وعَمار الدنيا ، وقد قال رسول الله ﷺ : « ينجو أول هذه الأمة بالزهد في الدنيا وقصر الأمل ، ويهلك آخرها بالحرص علىٰ الدنيا وطول الأمل » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من الشقاء أربع : جمود العين ، وقسوة القلب ، والحرص ، وطول الأمل » .

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام : « أعوذ بك من كل أمل يلهيني » .

وقال علي ـ كرم الله وجهه ـ : أَخْوَفُ ما أخاف عليكم اتباع الهوىٰ وطول الأمل ، أما اتباع الهوىٰ : فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فَيُنْسِي الآخرة .

ومن المأثور : مَن طال أمله ساء عمله .

فطول الأمل عبارة عن استشعار طول البقاء في الدنيا ، وهو دالّ من صاحبه علىٰ فرط الحماقة ونهاية الغباوة ، فإنه قد ضيَّع الحزم وتمسَّك بالوهم ، ولو قيل له مساء : هل تثق بالبقاء إلىٰ الصباح ؟ أو صباحاً : هل تثق بالبقاء إلىٰ المساء ؟ لقال : لا .

ثم هو يعمل لدنياه عمل من لا يموت ، حتىٰ لو أنه أُخبر أنه يُخَلَّد في الدنيا لم يجد موضعاً للزيادة علىٰ ما هو عليه من الحرص والرغبة في الدنيا .

فمن أعظم حماقة ممن هذه صفته ؟

ثم إن طول الأمل أصل لجملة من سيئات الأخلاق والأعمال التي تثبط عن الطاعة ، وتدعو إلىٰ الوقوع في المعصية ، مثل : الحرص ، والبخل ، وخوف الفقر .

ومن أعظمها قبحاً : الاستئناس بالدنيا ، والأخذ في عمارتها ، والسعي لجمع حطامها . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « بُعِثْتُ لخراب الدنيا ، فمن عمرها فليس مني » .

وعن طول الأمل يكون التسويف ، وهو العقيم الذي لا يلد خيراً قط ، يقال : إن أكثر صياح أهل النار من التسويف . فلا يزال المسوّف يتثاقل عن الطاعات ، ويؤخّر التوبة عن السيئات ، حتىٰ ينزل به الموت ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون : ٦٣/ ١٠] ، فيقال له : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون : ٦٣/ ١١] ، ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر : ٣٥/ ٣٧] .

فيَخرج من الدنيا بحسرة لا آخر لها ، وندامة لا انتهاء لها ؛ فقصّر يا أخي أملك ! وليكن أجلك نصب عينيك ، وأملك وراء

ظهرك ، واستعِنْ علىٰ ذلك بالإكثار من ذكر هادم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وتَفَكَّر في مَن دَرَجَ أمامك من المعارف والقرابات ، واستشعر قرب الموت ، فإنه أقرب غائب ينتظر ، وكن مستعداً له متخوّفاً هجومه في جميع الحالات .

وقد كان رسول الله ﷺ : يقول : « والذي نفسي بيده ما رفعت طرفي فَظَنَنْتُ أني أخفضه حتىٰ أُقْبَضَ ، ولا أكلت لقمة فظننت أني أسيغها حتىٰ أغص بها من الموت » الحديث .

وربما ضرب عليه السلام بيده علىٰ الحائط للتيمم فيقال له : إن الماء منك قريب ، فيقول : « لا أدري لعلي لا أبلغه » .

وكان الصِّدِّيق رضي الله عنه ، ينشد :

كل امرىء مصبح في أهله   والموت أدنىٰ من شراك نعله

قال حجة الإسلام ـ رحمه الله ـ : اعلم أن الموت لا يهجم في وقت مخصوص وحال مخصوص وسنّ مخصوص ، ولا بد من هجومه ؛ فالاستعداد له أولىٰ من الاستعداد للدنيا .

فصل

وأما **تناول الحرام والشبهات** : فهو لا محالة يصرف عن الطاعة ، ويدعو إلىٰ المعصية ، وقد رُوِيَ مرفوعاً إلىٰ رسول الله ﷺ : « من أكل الحلال أطاعت جوارحه شاء أم أبىٰ ، ومن أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبىٰ » .

وفي الخبر أو الأثر : « كُلْ ما شئت فمثله تعمل » .

وقال بعض العارفين : ما قطع الخلق عن الحق ، وأخرجهم من دائرة الولاية ؛ إلا عدم تفتيشهم عن هذه اللقمة .

وآكل الحرام والشبهة وإن أطاع فطاعته غير مقبولة لأن الله تعالىٰ يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة : ٥/ ٢٧] والله طيِّب لا يقبل إلا طيِّباً .

فأمسكْ يا أخي عن تناول الحرام وجوباً ، وعن تناول الشبهات ورعاً ، وعليك بطلب الحلال ، فإن طلبه فريضة بعد الفريضة ، فإذا ظفرت به فكُلْ منه قصداً ، والبَسْ منه قصداً ، ولا تُسرفْ فإن الحلال لا يحتمل السَّرَف ؛ وإياك والشِّبع فإنه من الحلال مبدأ كل شر ، فكيف من الحرام ؟

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرّاً من بطنه ، حَسْب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ؛ فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لِنَفَسِه » ، والسلام .

فصل

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات : ٥١/٥٦] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت : ٢٩/٥٦] .

فعليك أيها المؤمن ـ وفقك الله ـ بالتفرغ لعبادة ربك بقطع ما يَقطع عنها من القواطع ، وصرف ما يَصرف عنها من الصوارف والموانع .

واعلم أن العبادة لا تصح بدون العلم ، والعلم والعبادة لا ينفعان إلا مع الإخلاص ، فعليك به ، فإنه القطب الذي عليه المدار ، والأصل الذي عليه المعوّل . وهو كما قال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : الإخلاص : إفراد الحق في الطاعة بالقصد . وهو أن تقصد بطاعتك التقرب إلىٰ الله دون شيء آخر ؛ مِنْ تَصَنُّع لمخلوق ، أو اكتساب محمدة عند الناس ، أو محبة مدح من الخلق ، أو معنىٰ من المعاني سوىٰ التقرب إلىٰ الله . قال : ويصح أن يقال : الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة الخلق . انتهىٰ ، وهو القصد في هذا الباب .

فصل

وإياك **والرياء** فإنه يحبط العمل ويبطل الثواب ، ويوجب المقت والعقاب ، وقد سمَّاه رسول الله ﷺ : الشرك الأصغر .

وفي الحديث الصحيح عنه ، ﷺ : « أوَّلُ خَلْقِ الله تُصلَىٰ بهم النار ثلاثة : رجل قرأ القرآن ليقال إنّه قارىء ، ورجل استشهد وما قاتل إلا ليقال إنه جريء ، ورجل له مال تَصَدَّق منه صدقة ليقال إنه جواد » . الحديث مختصر بمعناه .

والرياء : عبارة عن طلب المنزلة عند الناس ، بعمل يتقرب بمثله إلىٰ الله ؛ كالصلاة والصيام. فإن أحسستَ من نفسك بالرياء فلا تطلبنّ الخلاص منه بترك العمل، فتكون قد أرضيت الشيطان، بل عليك أن تنظر ، فكل عمل لا تستطيع أن تعمله إلا حيث يراك الناس ؛ كالحج والجهاد وطلب العلم وصلاة الجماعة وما جرىٰ مجرىٰ ذلك ، فعليك أن تفعله ظاهراً كما أمرك الله ، وجاهِدْ نفسك واستعن بالله . وأما ما لا يكون من الأعمال بهذه المثابة ؛ كالصيام والقيام والصدقة والتلاوة ، فعليك في مثل هذه الأعمال بالمبالغة في كتمانها ، فإن فعلها في السر أفضل مطلقاً ، إلا لمن أمن الرياء وأمَّل الاقتداء ، وكان من أهله .

فصل

واحذر **العُجْب** فإنه من المحبطات .

قال رسول الله ﷺ : « العُجْب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوىً متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

والعُجْب : عبارة عن نظر الإنسان إلىٰ نفسه بعين التعظيم ، وإلىٰ ما يصدر منها بعين الاستحسان ، وعنه نشأ الإدلال بالعمل والتعاظم علىٰ الناس والرضا عن النفس .

وهو كما قال ابن عطاء الله ـ رحمه الله ـ : أصل كل معصية وغفلة وشهوة : الرضا عن النفس . انتهىٰ .

ومن رضي عن نفسه عمي عن عيوبها ، ومتىٰ يُفلح من يجهل عيوب نفسه ؟ :

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ   ولكن عين السخط تبدي المساويا

فَصْلٌ

قال رسول الله ﷺ : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

فإذا كان حُبُّها رأسَ كُلِّ خطيئة ، وأَصْلَ كُلِّ بلية ، وأساس كل رَزِيَّة ، ومعدن كل فتنة ، ومنبع كل محنة ، وهو أمر قد عم في هذا الزمان ضرره ، وطار شرره ، وعظم خطره ، وأطبق عليه الخاص والعام ، وتظاهر الناس به بلا احتشام كأنه لا عار فيه ولا ملام ، وقد تمكن من قلوبهم كل التمكن ، فأثمر لهم الحرص البالغ علىٰ عمارة الدنيا وجمع الحطام ، فَغَدَوا وراحوا بشبكاتهم لاصطياد الشبهات والحرام ، كأن الله قد فرض عليهم عمارة الدنيا كما فرض الصلاة والصيام .

ولذلك دَرَسَتْ معالم الدين ، وطَمَسَتْ أنوار اليقين ، وخَرِسَتْ ألسنة المذكرين ، وعَفَت سُبُل الهدىٰ ، واقتُحِمَتْ سُبُل الردىٰ ، وهذه والله هي الفتنة العمياء الصماء ، المدلهمة السوداء ، التي لا يُجاب فيها من دعا ، ولا يُسمع فيها من نادىٰ ، حق ما أخبر به سيد الأنبياء ، إذ يقول : « لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتي المال . ولكل أمة عجل ، وعجل أمتي الدينار والدرهم » . معناه والله أعلم : أن لكل أمة شيئاً يشتغلون به عن عبادة الله تعالىٰ كل الاشتغال ، كما اشتغلت بنو إسرائيل بعبادة العجل عن عبادة الله تعالىٰ .

وَبعدُ فمنَ الحسَنِ أن نختمَ هٰذِهِ النّبْذَةَ بشَيءٍ مِمّا وَرَدَ في ذَمِّ الدّنيا وَذَمِّ مُؤثِرِهَا ، وَيَنبغِي أن نُصَدِّرَ ذلك بقَاعِدَةٍ يعَوّلُ عَليهَا وَيُرجَعُ إليها . فَنَقولُ وَباللهِ التّوفِيقُ :

الدنيا علىٰ ثلاث طبقات : فدنيا فيها الثواب ، وأخرىٰ فيها الحساب ، وثالثة فيها العذاب .

فأما التي فيها **الثواب** : فهي التي تصل بواسطتها إلىٰ الخير ، وتنجو بواسطتها مِنَ الشر ، وهي مطية المؤمن ومزرعة الآخرة ، وهي الكفاف من الحلال .

وأما التي فيها **الحساب** : فهي التي لا تشتغل بسببها عن أداء مأمور ، ولا ترتكب في طلبها أمراً محظوراً ، وهذه الدنيا فيها الحساب الطويل ، وأربابها هم الأغنياء الذين يسبقهم الفقراء إلىٰ الجنة بنصف يوم وهو خمسمائة عام .

وأما التي فيها **العذاب** : فهي التي تَقْطَع عن أداء المأمورات ، وتُوقِع في ارتكاب المحظورات ، وهي زاد صاحبها إلىٰ النار ، ومدرجته إلىٰ دار البوار . وإليه الإشارة بما روي : « إن الله يأمر بالدنيا إلىٰ النار فتقول : يا رب ، أشياعي وأتباعي ؟ فيقول سبحانه وتعالىٰ : ألحقوا بها أشياعها وأتباعها ، فيُلْحَقون بها » .

واعلم أن طلاب الدنيا علىٰ أنواع : فمنهم من يطلبها على

نية صلة الأقربين ومواساة المقلين ، وهذا يعدّ من الأسخياء ، وله ثواب إن وافق عمله نيته ، ولكنه لا حكمة عنده ، لأن الحكيم لا يطلب أمراً لا يدري ماذا يكون الحال عند حصوله ؛ وَلْيَعْتَبِرْ من يطلبها علىٰ هذه النية بقصة ثعلبة المشار إليه في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ [التوبة : ٩/ ٧٥] . الآيات . وكم من طالب نيته نيل الشهوات ، والتمتع باللذات ، وهذا يعدّ في جملة البهائم ويدخل في حيز الأنعام ، وإليه وإلىٰ نوعه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان : ٢٥/ ٤٤] ، وكم من طالب يطلب الدنيا ليفاخر بها ويكاثر بها ويباهي بها ، وهو معدود من الحمقىٰ المغرورين بل من الهالكين المثبورين ، و ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ ﴾ [البقرة : ٢/ ٦٠] ، ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [القصص : ٢٨/ ٦٩] .

فانصح يا أخي لنفسك ، وإياك أن تغشها ، فتدّعي أمراً ليس من نيتك ، فتكون قد جمعتَ بين الإفلاس والدعوىٰ ، فتخسر الدنيا والآخرة : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر : ٣٩/ ١٥] . إذا تقرر هذا فلنشرع في الخاتمة ونقول :

خاتمة

تحتوي على آيات من كتاب الله وأخبار من سنة رسول الله ﷺ وآثار من حكمة أولياء الله تدل على حقارة الدنيا وسرعة زوالها وعلى حماقة من اغتر بها وركن إلى محالها وتحمل على الزهد في الدنيا من نظر فيها، وكان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

قال الله تعالى، وقوله الحق وكلامه الصدق: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: ١٨/ ٧ - ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١ ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣١].

وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ

﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورىٰ : ٤٢/ ٢٠] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد : ٥٧/ ٢٠] .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النازعات : ٧٩/ ٣٧ ـ ٣٩] .

وقال رسول الله ﷺ : « الدنيا ملعَونة ، ملعَون ما فيها ، إلا ذكر الله ، وعالم ومتعلم ، فلو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ، ما سقىٰ كافراً منها شربة ماء » . « الدنيا جيفة قذرة » .

« إن الله تعالىٰ جعل ما يَخْرُج من ابن آدم مَثَلاً للدنيا » .

« ما الدنيا في الآخرة ؛ إلا مثل ما يضع أحدكم إصبعه في اليمّ ، فينظر بماذا يرجع » .

« لَيَوَدَّنَّ كل أحد يوم القيامة ، أَنَّ ما أعطي من الدنيا كان قوتاً » .

« إن بين أيديكم عقبة كئوداً ، لا يجوزها إلا المُخِفُّون » .

وقال رجل : هل أنا من المُخِفِّين يا رسول الله ؟ فقال :

« هل عندك قوت يومك » ؟ قال : نعم ، قال : « عندك قوت غد » ؟ قال : لا ، فقال رسول الله ﷺ : « لو كان عندك قوت غد لم تكن من المُخِفِّين » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الدُّنيَا حلوة خضرة ، وإن الله مُسْتَخْلِفُكم فيها ، فناظر كيف تعملون ، فاتّقوا الدنيا ، واتّقوا النساء ، فوالله ما الفقرُ أخشىٰ عليكم ، إنما أخشىٰ أن تُبْسَطَ عليكم الدنيا كما بُسِطَتْ علىٰ مَن كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » .

« إن مما أخاف عليكم بعدي ما يُفْتَحُ عليكم من زهرة الدنيا وزينتها وزهرتها » .

« احذروا الدنيا ؛ فإنها أسحر من هاروت وماروت » .

« الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر » .

« إن الله يذود الدنيا عن عبده المؤمن ، كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة » .

« ذنبٌ لا يُغْفَرُ ؛ حُبُّ الدنيا » .

« مَن أحبّ آخرته ، أضرّ بدنياه . ومَن أحب دنياه ، أضرّ بآخرته . فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ » .

« مُرَّة الدنيا حلوة الآخرة ، وَحلوة الدنيا مُرَّة الآخرة » .

«الأكثرون هم الأقلّون يوم القيامة إلا مَنْ قال هكذا وهكذا » .

« ليجاءُنّ بأقوام يوم القيامة ، لهم أعمال كجبال تهامة ، فتجعل هباء منثوراً ، ويؤمر بهم إلىٰ النار ، كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هينة من الليل ، فإذا لاح لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ما لي وللدنيا ، إنما مَثَلِي وَمَثَلُ الدنيا كراكب سار في يوم صائف ، فقال تحت شجرةٍ ساعةً ، ثم راح » .

« من أصبح آمناً في سربه ، معافىٰ في جسده ، عنده قوت يومه ؛ فكأنما حيزت إليه الدنيا بحذافيرها » .

« بُعِثْتُ لخراب الدنيا ، فمَن عَمَرَها فليس مني » .

« من كانت نيته الآخرة ؛ جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، واتته الدنيا وهي راغمة . ومن كانت نيته الدنيا ؛ جعل الله الفقر بين عينيه ، وشتَّت عليه أمره ، ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما كتب الله له » .

« كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعُدَّ نَفْسَك في أهل القبور » .

« ازهد في الدنيا يحبّك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبُّك الناس » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الدنيا دار من لا دار له ،

ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له ، وعليها يحزن من لا علم له ، وعليها يَحْسُدُ من لا فقه له ، وبها يفرح من لا يقين له » .

« ما سَكَن حبُّ الدنيا قلبَ عبد إلا التاط منها بثلاث : شغل لا ينفك عَناه ، وفقر لا يدرك غَناه ، وأمل لا يُنال منتهاه » .

« إنَّ الدنيا والآخرة طالبتان ومطلوبتان ، فطالب الآخرة : تطلبه الدنيا حتىٰ يستوفي رزقه ، وطالب الدنيا : تطلبه الآخرة حتىٰ يأخذ الموت بعنقه » .

« ألا وإن السعيد من آثر باقيةً يدوم نعيمها علىٰ فانية لا ينفدُ عذابها ، وقَدَّمَ لما يقدم عليه ، مما هو الآن في يديه ، قبل أن يُخَلِّفَهُ لمن يَسْعَدُ بإنفاقه ، وقد شَقِيَ هو بجمعه واحتكاره » ، « تعس عبد الدنيا وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الزهادة في الدنيا : تريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا : تكثر الهمّ والحزن ، والبطالة : تقسي القلب » .

« إن النور إذا دخل القلب انشرح له وانفسح ، قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلىٰ دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » .

وأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ : « يا موسىٰ ، إذا أحببت عبدي زويت عنه الدنيا ، وهكذا أفعل بأحبابي . يا موسىٰ ، إذا رأيت الغنىٰ مقبلاً فَقُلْ : ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل : مرحباً بشعار الصالحين » .

وأوحىٰ الله إلىٰ داوود : « يا داوود ، من آثر هوىٰ دنياه علىٰ لذة آخرته ، فقد استمسك بالعروة التي لا وثاق لها . ومن آثر هوىٰ آخرته علىٰ لذة دنياه ، فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها » .

وأوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ : « يا عيسىٰ ، قُلْ لبني إسرائيل يحفظوا عني حرفَيْن : قل لهم لِيَرضُوا بِدَنِيِّ الدنيا لسلامة دينهم ، كما رضي أهل الدنيا بِدَنِيِّ الدين لسلامة دنياهم » .

وفي بعض كتب الله المنزلة : أهون ما أنا صانع بالعالِم إذا ركن إلىٰ الدنيا ؛ أن أُخْرِجَ حلاوة مناجاتي من قلبه .

ويروىٰ عن الله تعالىٰ أنه قال للدنيا : « يا دنيا : مُرّي لأوليائي ولا تَحْلِي لهم فتفتنيهم » .

وقال عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ : مَثَلُ الدنيا والآخرة مَثَلُ المشرق والمغرب ؛ علىٰ قَدْر ما تقرُبُ من أحدهما تبعد عن الآخر . ومَثَلُ الضَّرّتَيْن إذا أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرىٰ . ومَثَلُ إناءين أحدهما فارغ والآخر ممتلىء ، بقَدْر ما تصب في الفارغ ينقص الملآن .

وقال رضي الله عنه : وجدت الدنيا ستة أشياء : مطعوم ، وأطيبه العسل ، وهو مَذْقَة ذباب . ومشروب ، وأحسنه الماء ، وهو الذي يستوي به البَرُّ والفاجر . ومشموم ، وأذكاه المسك ، وهو دم فأرة . وملبوس ، وألينه الحرير ، وهو نسج دودة . ومركوب ، وأَنْفَسُهُ الفرس ، وهي التي يُقْتَل عليها الرجال . ومنكوح ، وهو مبالٍ في مبالٍ ، وحسبك أن المرأة تتزَيَّن بأحسن ما عندها ، ويُقْصَدُ منها أخسّ ما فيها .

وقال رضي الله عنه : طوبىٰ للزاهدين في الدنيا ، الراغبين في الآخرة ، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً ، وترابها فراشاً ، وماءَها طِيْباً ، والدعاء والقرآن شعاراً ودثاراً ، فرفضوا الدنيا علىٰ منهاج عيسىٰ عليه الصلاة والسلام .

وفي المعنىٰ أنشدوا :

إنَّ لله رجـــالاً فُطُنـــا ... طَلَّقوا الدنيا وخافوا الفِتَنا
نظـروا فيهـا فلمـا علمـوا ... أنهـا ليسـت لحـيّ وطنـا
جعلـوهـا لجـة واتخـذوا ... صـالـح الأعمـال فيهـا سفنـا

وقال سعيد بن المسيَّب ـ رحمه الله ـ : الدنيا نذلة ، وهي بكل نذل أشبه . وأنذل منها مَنْ يأخذها من غير وجهها .

وللمتنبِّي في المعنىٰ :

وشِبْـهُ الشـيء منجـذبٌ إليـه ... وأَشْبَهُنـا بـدنيـانـا الطغـام

ولـو لـم يَعْـلُ إلا ذو محـل   تعالىٰ الجيش وانحط القَتام

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لبّ فيها فرحاً ، رحم الله أمْرَأً لبس خَلَقاً ، وأكل كسرة ، ولزق بالأرض ، وبكىٰ علىٰ الخطيئة ، ودأب في العبادة .

وقال ـ رحمه الله ـ : إذا دخل القلبَ حُبُّ الدنيا ذهب منه خوف الآخرة ، وإياكم وما يشغل من الدنيا ؛ فإنه لم يَفْتَحْ عبد علىٰ نفسه باباً من الدنيا إلا سدّ عليه عدة أبواب من عمل الآخرة .

وقـال ـ رحمـه الله ـ : مسكيـن ابـن آدم يستقـلّ مـالـه ، ولا يستقلّ عمله . يفرح بمصيبته في دينه ، ويجزع بمصيبته في دنياه . علىٰ الأسقام والأمراض أُسِّسَتْ هذه الدنيا ، هَبْكَ تصح من الأسقام ، وتبرأ من الأمراض ، هل تقدر أن تنجو من الموت ؟

ولله در القائل :

هَـبِ الـدنيـا تـواتيكـا   أليـس المـوت يـأتيكـا
ألا يـا طـالـب الـدنيـا   دع الـدنيـا لشـانيكـا
فمـا تصنـع بـالـدنيـا   وظـل المِيْـل يكفيكـا
كما أضحكك الدهر   كـذاك الـدهـر يُبْكيكـا

وقال محمد الباقر رضي الله عنه : ما الدنيا ؟ وما عسىٰ أن تكون ؟ هل هي إلا مركب ركبته ، أو ثوب لبسته ، أو امرأة أصبتها ؟

وقال وهب بن منبه ـ رحمه الله ـ : للجنة ثمانية أبواب ، فإذا حصل الناس عليها قال لهم الخزنة : وعزّة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا والعاشقين للجنة .

وقال محمد بن سيرين : اختصم رجلان في أَرْضٍ ، فأوحىٰ الله إلىٰ الأرض : أن كلّميهما ، فقالت لهما : يا مسكينان ، قد ملكني قبلكما ألفُ أعور فضلاً عن الأصحاء .

وقال أبو حازم المدني ـ رحمه الله ـ : ما في الدنيا شيء يسرك ، إلا وقد لصق به شيء يَسُوْءُك ، الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، وموطن شقاء لا موطن رخاء . وقالت له امرأته : إن الشتاء قد يهجم ، ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب ، فقال : مِن هذا كله بُدٌّ ، ولكن لا بدّ لنا من الموت ، ثم البعث ، ثم الوقوف بيني يدي الله ، ثم الجنة أو النار .

وقال ـ رحمه الله ـ : ما تضرب بيدك إلىٰ شيء من الدنيا ، إلا وتجد فاجراً قد سبقك إليه .

وقال ـ رحمه الله ـ : نعمة الله عليّ فيما زوىٰ عني من الدنيا ، أفضل من نعمته عليّ فيما صرفه إليّ منها .

وقال : ما مضىٰ من الدنيا فَحِلْمٌ ، وما بقي منها أمانيّ .

وأنشدوا في المعنىٰ :

كعبور طيف أو كظل زائل   إن اللبيب بمثلها لا يُخْدَعُ

ولأبي الطيب المتنبي :

وكم مَنْ يعشق الدنيا قديماً   ولكن لا سبيل إلىٰ الوصال
نصيبك في حياتك من حبيب   نصيبك في منامك من خيال

وقال لقمان عليه السلام : من باع دنياه بآخرته ربحهما جميعاً ، ومن باع آخرته بدنياه خسرهما جميعاً .

وفي وصية لابنه : إنَّ الدنيا بحر عميق ، قد غرق فيه ناس كثير ، فلتكن سفينتك فيه تقوىٰ الله ، وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكل ، لعلك تنجو ، وما أراك ناجياً .

وقال مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ : إذا سقم البدن ، لم ينجع فيه طعام ولا شراب ، ولا نوم ولا راحة ، وكذلك القلب ، إذا غلبه حب الدنيا لم تنفعه الموعظة .

وقال مالك لأصحابه : أنا أدعو وأمِّنوا أنتم : اللهم لا تُدْخِلْ بيت مالك من الدنيا لا قليل ولا كثير .

وكان إذا خرج من منزله يشد بابه بحبل ويقول : لولا الكلاب لتركته مفتوحاً .

وكان يقول : لا يبلغ العبد منازل الصدّيقين ، حتىٰ يدع امرأته كأنها أرملة ، ويأوي إلىٰ الكلاب .

ومر علىٰ رجل يغرس فسيلاً ، فغاب يسيراً ، ثم مر بالموضع وقد أثمر الفسيل ، فسأل عن غارسه ، فقيل له : مات ، فأنشأ يقول :

مـؤمِّـلُ دنيـا لتبقـىٰ لـه   فمـات المـؤمِّـلُ قبـل الأمـلْ
يـربـي فسيـلاً ويُعْنَـىٰ بـه   فعاش الفسيل ومات الرجل

ولأبي العتاهية :

كم عامرٍ داراً لِيَسْكُنَ ظِلَّها   سَكَنَ القبورَ ودارَهُ لم يَسْكُنِ

وفي بعض الآثار : « لا تزال لا إلٰه إلا الله تدفع عن قائليها ما لم يؤثروا صفقة دنياهم علىٰ دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوها ، قال الله : كذبتم لستم بها صادقين » .

وكان بعض السلف يقول : يا من يمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه ، أمسك عني الدنيا .

ودخل إبراهيم بن أدهم علىٰ المنصور ، فقال : يا إبراهيم ، ما تقول ؟ فأنشده :

نُـرَقِّـعُ دنيـانـا بتمـزيـق ديننـا   فلا ديننا يبقىٰ ولا ما نُرَقِّعُ

وقال إنسان لداوود الطائي : أوصني ، فقال له : صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة ، وفِرَّ من الناس فرارك من الأسد .

ورآه رجل في المنام وهو يعدو ، فقال له : يا أبا سليمان ، ما لك ؟ فقال : الآن أفلت من السجن . فلما استيقظ قيل له : مات دوواد الطائي .

وقال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ : جُعِل الشر كله في بيت ، وجُعِل مفتاحه : الرغبة في الدنيا . وجُعِل الخير كله في بيت ، وجُعِل مفتاحه : الزهادة في الدنيا .

وقال ـ رحمه الله ـ : لو كانت الدنيا ذهباً يفنىٰ والآخرة خزفاً يبقىٰ ، لكان ينبغي لنا أن نؤثر خزفاً يبقىٰ علىٰ ذهب يفنىٰ ، فكيف والدنيا خزف يفنىٰ والآخرة ذهب يبقىٰ ؟ .

وقال ـ رحمه الله ـ : لو أُتِيت بالدنيا وقيل لي خذها حلالاً بلا حساب ، لكنت أستقذرها كما يستقذر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه .

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ : لو كانت الدنيا تباع في السوق لما اشتريتها برغيف . لما أرىٰ فيها من الآفات .

وقال ـ رحمه الله ـ :

ومن يجهل الدنيا فإني عَرَفْتُها ... وسيق إلينا عذبها وعذابُها
فلم أرها إلا غروراً وباطلاً ... كما لاح في ظهر الفلاة سرابُها

وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب هَمُّهُنَّ اجتذابها
فإن تجتنبها عشت سلماً لأهلها وإن تجتذبها جاذبتك كلابها

وقال بشر بن الحارث ـ رحمه الله ـ : من سأل ربه الدنيا فقد سأله طول الوقوف بين يديه ـ يعني : للحساب ـ

وكان ينشد هذه الأبيات :

أقسم بالله لرضخُ النوىٰ وشربُ ماء القُلُبِ المالحهْ
أحسنُ للمؤمن من حِرْصِهِ ومن سؤال الأوجه الكالحه
فاسْتَغْنِ بالله تكن ذا غنىٰ مغتبطاً بالصفقة الرابحة
اليأس عزّ والتقىٰ سؤدد ورغبة النفس لها فاضحه
من كانت الدنيا به بَرَّةً فإنها يوماً له ذابحه

وكان ينشد أيضاً هذين البيتين لبعض السلف، رضوان الله عليهم :

مكرم الدنيا مهانٌ مُسْتَذَلٌ في القيامهْ
والذي هانت عليه فله ثَمَّ كرامهْ

وقال ضرار بن ضمرة يصف علياً ، ـ كرم الله وجهه ـ : كان يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل وظلمته ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ؛ وقد أَرْخىٰ الليل سدوله وغارت نجومه ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، قابضاً على لحيته قائلاً : يا دنيا غُرِّي غيري ، أَلِيْ تعرضتِ ، أم إليَّ تشوفتِ ، قد بتتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمركِ قصير ، ومجلسكِ حقير ، وخطركِ كبير . آه آه من قلة الزاد، وبعد الطريق، ووحشة السفر .

وقال بعض السلف : مسكين ابن آدم ، رضي بدار حلالها حساب ، وحرامها عذاب ، إن أخذه مِن حِلِّه حوسب بنعيمه ، وإن أخذه من غير حِلِّه عذب به .

وقال المأمون ـ رحمه الله ـ : ما أحسب أحداً يصف الدنيا ـ يعني : من الشعراء ـ بمثل ما وصفها به الحسن بن هانئ في قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكَشَّفَتْ له عن عدوّ في ثياب صديقِ
وما الناس إلا هالكٌ وابن هالكٍ وذو نسب في الهالكين عريق

وقال يحيى بن معاذ ـ رحمه الله ـ : ليكن نظرُك في الدنيا اعتباراً ، وزهدك فيها اختياراً ، وأخذك منها اضطراراً .

وقال ـ رحمه الله ـ : تركت الدنيا لكثرة عنائها ، ولقلة غنائها ، ولسرعة فَنائها ، ولِحَسَد شركائها .

وقال أيضاً : الدنيا حانوت إبليس ، مَن أخذ منه شيئاً تبعه حتى يأخذه . الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غَمَّ ساعة ، فكيف بغم عمرك مع قلة نصيبك منها ؟

وقال بعض الصالحين :

ومَن يحمد الدنيا لعيش يَسُرُّه فسوف لعمري عن قريب يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرةً وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

ودعا الرشيد بشربة ماء ، فأُتي بها ـ وكان ابن السماك عنده ـ فقال له : أرأيت لو حيل بينك وبين هذه الشربة ، أكنت تشتريها بملكك ؟ قال : نعم . فقال ابن السماك : أفّ لدنيا لا تساوي شربة ماء .

وقيل لبعض المتقدمين ممن طال عمره : صف لنا الدنيا ، فقال : بيت له بابان ، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر ، ورأيت سُنَيَّاتِ بلاء وسُنَيَّاتِ رخاء ، ومولود يولد وهالك يهلِك ، فلولا مَن يَلِد مابقي منهم أحد ، ولولا من يهلِك ما وسعتهم الدنيا .

وقال بعض الحكماء : الدنيا خراب ، وأخرب منها قلب من يعمرها . والآخرة عَمار ، وأعمر منها قلب من يطلبها .

وقيل لحكيم آخر : الدنيا لمن ؟ قال : لمن تركها ، قيل : فالآخرة لمن ؟ قال : لمن طلبها .

وقيل لبعض الزهاد : كيف رأيت الدنيا ؟ قال : تخلق الأبدان ، وتجدد الآمال ، وتقرّب المنية ، وتبعد الأمنية ، قيل : فما حال أهلها؟ قال: من ظفر بها تَعِب ، ومن فاتته نَصِب .

ولله درّ من يقول :

أرى الدنيا لمن هي في يديهِ ... عذاباً كلما كثرت عليهِ
تُهِين المُكْرِمِين لها بصُغْرٍ ... وتُكْرِم كُلَّ من هانت عليهِ
إذا استغنيت عن شيء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه

قال الإمام حجة الإسلام في « الإحياء » : أما بعد ، فإن الدنيا عدوّةٌ لله ، وعدوّة لأولياء الله ، وعدوّة لأعداء الله .

أما عداوتها لله : فإنها قطعت الطريق على عباد الله ، ولذلك لم ينظر إليها مذ خلقها .

وأما عداوتها لأولياء الله : فإنها تزينت لهم بزينتها ، وعمتهم بزهرتها ونضارتها ، حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها .

وأما عداوتها لأعداء الله : فإنها استدرجتهم بمكرها ومكيدتها ، واقتنصتهم بشبكتها ، حتى وثقوا بها وعوّلوا عليها ، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها ، فاجْتَنَوْا منها حسرة تتقطع منها الأكباد ، ثم حرمتهم من السعادة أبد الآباد ، فهم على فراقها يتحسرون ، ومن مكائدها يستغيثون فلا يغاثون ، بل يقال لهم : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون : ٢٣/١٠٨] ، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢/٨٦] . انتهى .

وعلى الجملة فالآيات والأخبار والآثار في هذا الباب أكثر من أن تحصى ، وأبعد من أن تستقصى ، وفيما أشرنا إليه كفاية ، وعبرة لمن يعتبر ، وتذكرة لمن يتذكر ، ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر : ٤٠/١٣] .

وَلنَختِمْ هٰذه الخَاتِمَة بِذِكْرِ شَيْءٍ مِن كلَامِ رَأسِ الزَّاهِدِينَ وَحُجّة اللهِ عَلَيهم عيسَى ابن مَريَم على نَبِيّنَا وَعَلَيْه أفضَل الصَّلَاةِ والسَّلَام .

قال عيسى عليه السلام : الدنيا قنطرة ، فاعبروها ولا تعمروها . يا طالب الدنيا لِتَبَرَّ بها ، تَرْكُك لها أبرّ وأبرّ . لا يجتمع حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يجتمع الماء والنار في إناء واحد .

وقال عيسى عليه السلام : الدنيا عَرَض حاضر ، يأكل منه البَر والفاجر . والآخرة وعد صادق ، يحكم فيه مَلِك قادر .

وقال عليه الصلاة والسلام: «لاتتخذوا الدنيا رَبّاً فتتخذكم عبيداً ، اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه ، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليها الآفة ، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة » .

وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « إدامي : الجوع ، وشعاري : الخوف ، ولباسي : الصوف ، وصلاتي في الشتاء : مشارق الشمس، وسراجي: القمر، ودابتي: رجلاي ، وطعامي وفاكهتي : ما أنبتت الأرض ، أبيت وليس لي شيء ، وأصبح وليس لي شيء ، وما أجد على الأرض أغنى مني » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عجبت لغافل ليس بمغفول عنه ، وبمؤمل دنيا والموت يطلبه ، ولباني قصر والقبر مسكنه ، إن خشية الله وحُبَّ الفردوس يباعدان من زهرة الدنيا ، ويورثان الصبر على المشقة ، وإن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس » .

وكان يقول : يا معشر الحواريين : قد أكببت لكم الدنيا على وجهها ، فلا تنعشوها بعدي .

وقالوا له : ما لك تمشي على الماء ، ونحن لا نستطيع المشي عليه ؟ قال : كيف منزلة الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا : حسنة رفيعة ، قال : لكنها عندي بمنزلة الحجر والمدر .

وتوسد حجرا ، فأتاه إبليس فقال له : يا عيسى ، ركنتَ إلى الدنيا ، فرمىٰ إليه بالحجر ، وقال : ما عندي منها غير هذا .

واشتدّ عليه المطر والبرق والرعد يوماً ، فرُفِعَتْ له خيمة فقصدها ، فإذا فيها امرأة فتركها .

ورأى مغارة فأتاها ، فرأى بها سبعاً ، فقال : اللهم جعلت لكلٍّ مأوى ولم تجعل لي مأوى ، فأوحى الله إليه : مأواك في مستقر رحمتي ، لأزوجنّك آلافاً من الحور العين ، ولأطعمنّ أهل الجنة في عرسك آلافاً من السنين .

وقال عليه الصلاة والسلام : يا ابن آدم ، إن كنت تطلب من الدنيا ما يكفيك ، فالقليل منها يكفيك . وإن كنت تريد منها فوق ما يكفيك ، فجميع الدنيا بأسرها لا يكفيك . فلا تهلكوا أنفسكم بطلب الدنيا ، واغلبوا أنفسكم عليها بترك ما فيها ، فعُراةً دخلتموها ، وعراةً تخرجون منها ، وَاسألوا الله رزق يوم بيوم ، واعلموا أن الله قد جعل الدنيا قليلاً ، وما بقي منها قليل من قليل ، قد شُرِب صَفْوُه وبقي كدره .

واعلموا أن الدنيا دار عقوبة وغرور ، فكونوا فيها كرجل يداوي جرحه ، يصبر على شدة الدواء لما يرجو من الشفاء وعافية الداء ، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عجباً لكم تعملون للدنيا ، وأنتم ترزقون فيها بغير عمل . ولا تعملون للآخرة ، وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل » .

وتمثلت له الدنيا في صورة امرأة ، عليها من كل زينة ، فقال لها : « هل لك من زوج » ؟ قالت : أزواج كثيرة ، فقال : « فكلهم طلقَكِ أم مات عنكِ ، أم كلهم قتلتِ » ؟! قالت : بل كلهم قتلتُ ، قال : « هل حزنت على أحد منهم » ؟ قالت : هم يحزنون عليّ ولا أحزن عليهم ، ويبكون عليّ ولا أبكي عليهم ، قال : « عجباً لأزواجِكِ الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين » !!

ومر على قوم يعبدون الله ، وفيهم رجل نائم ، فقال : « يا هذا ، قم فاعْبُد ربك مع أصحابك » ، فقال له : قد عبدته بأفضل من عبادتهم ، زهدت في الدنيا ، فقال له : « نَمْ هنيئاً فقد فقت العابدين » . أو كما قال .

وقال عليه الصلاة والسلام : ـ وقد سئل عن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ـ قال : « الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، واهتموا بآجل الدنيا حين اهتم الناس بعاجلها ، وأماتوا منها ما خَشُوا أن يميتهم ، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم ، فما عرض لهم من نائلها عارض إلا رفضوه ، ولا خادَعَهم من رفعتها خادِع إلا وضعوه ، خَلُقَتِ الدنيا عندهم فما يجدِّدونها ، وخربت بينهم فما يعمرونها ، وماتت في صدورهم فما يُحيونها ، بل يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ، ويبيعونها فيشترون بها ما يَبْقى لهم ، ونظروا إلى أهلها صرعى قد حلت بهم المَثُلات ، فلا يرون أماناً دون ما يرجون ، ولا خوفا دون ما يحذرون » .

آخر الخاتمة

وبه تكمل « رسالة المذاكرة مع الإِخوان وَالمحبين من أهل الخير والدين » ، وما سميتها بهذا الاسم إلا لكوني وضعتها على سبيل المذاكرة معهم . ألهمني الله وإياهم رشدنا ، ووقانا شر أنفسنا .

وكل ما أوردته في هذه الرسالة من الأخبار والآثار نقلته من الكتب الصحيحة المعتمدة ، وقد تركت الفصل بين الأحاديث التي أوردتها في صدر الخاتمة وصيرتها كأنها أربعة أحاديث أو خمسة وهي نحو من عشرين ، وما فعلت ذلك إلا لكوني رأيته أوجز وأخصر وأقرب إلى حصول الأثر .

و ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ : ٣٤/ ١-٢] .

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم إلى يوم البعث والنشور ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من إملاء هذه الرسالة : يوم الأحد قبيل وقت الظهر سلخ جمادىٰ الأول أحد شهور سنة ١٠٦٩ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله رب العالمين .

مباحث الرسالة